المثقف و فعالية التنمية و التنوير

سعاد مخلوف
جامعة حاج لخضر باتنة 1 (الجزائر)

الملخص :

- أي مثقف نقصده ــ ونسعى إليه ــ وكيف ؟
- وما التنمية الثقافية ــ وفي أي اتجاه نريد ــ وكيف ؟
- وما التنوير ــ وما ضرورته كهدف قومي ننشده؟

تنطلق هذه الأسئلة الثلاثة من إحساس عميق بالأزمة الثقافية التي نعنيها، والتي تتشابك أمامنا عواملها الداخلية والعالمية ، ولا يمكن أن نتجاهلها . بل ينبغي أن نفهم خطورتها و التعامل معها بفكر جديد في ضوء معطيات العصر الذي نعيشه ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين .

وثمة علاقة متطورة بين الأطراف الثلاثة : المثقف والتنمية الثقافية والتنوير، علاقة نفهمها ونتصورها من خلال نظرة شمولية لحركة التطور في مسيرة شعوب العالم الثالث نحو التنمية والتقدم مع إبراز دور المثقف في المجتمع ،وتقديم رؤية للرهانات المستقبلية للمثقف، وهدفنا في دراستنا الحالية هو محاولة الاجتهاد في صياغة مفهوم شمولي تنويري للمثقف وموجهات عمل تنير الطريق أمام كل ما ننشده من جهود مخلصة في مواجهة أي مشكل يعوق المثقف .

الكلمات المفتاحية: الثقافة و المثقف –التنمية الثقافية – ثقافة التنوير

Summary:
- Any intellectual we seek and seek and how?
- What cultural development and in which direction we want and how?
- What enlightenment and what is necessary as a national goal we seek?

These three questions stem from a deep sense of the cultural crisis we are facing, whose internal and global factors are intertwined and can not be ignored. But we must understand its seriousness and deal with it with a new thought in the light of the facts of the age we live in the twenty-first century.

There is a developed relationship between the three parties: the intellectual, cultural development and enlightenment, a relationship we understand and envision through a holistic view of the evolutionary movement in the march of the Third World peoples towards development and progress, while highlighting the role of intellectuals in society and presenting a vision for the future bets of the educated. The formulation of a holistic concept of enlightenment for intellectuals and work orientations that illuminates the way we seek sincere efforts in the face of any problem that hinders the intellectual.

Keywords: Culture and Culture - Cultural Development - Enlightenment Culture

مقدمة

إن الثقافة هي مرآة المجتمع والعاكسة للتفاعل الاجتماعي والثقافة والسياسي وغيره بين الأفراد داخل المجتمع الذي هو مجموع أفراد وجماعة من الجماعات الإنسانية في تفاعلها فإن الثقافة هي نتاج هذا التفاعل ، فالثقافة والمجتمع مترابطان.. ولا يمكن فهم أحدهما بدون فهم الآخر سواء من الناحية النظرية أم من الناحية الايجابية ، ذلك أن نشاط الأفراد في المجتمع يؤثر على حد كبير في المعاني والوسائل والأنظمة التي تتضمنها الثقافة واستمرار التفاعل بينهم يجعل من الممكن نمو الثقافة ، ويزيد من أهميتها في نفس الوقت وكذلك تحديد أنواع النشاط المختلفة.

واتصالا مع هذا الفهم ، يمكن القول إن : الثقافة والمجتمع هما حجر الزاوية في فهم السلوك الإنساني ، فالإنسان كائن ثقافي اجتماعي في آن واحد ، يمكن فهم سلوكه بفهم تفاعله مع الأفراد الآخرين وفي المجال الثقافي الذي هو موضوع هذا التفاعل .

وعلى ضوء هذه النظرة التي تربط بين الثقافة والمجتمع والفرد يمكن فهم معنى طبيعة الفرد والدور الاجتماعي والأنظمة الاجتماعية والتغير الاجتماعي الثقافي **.(عبد الباري محمد داود، 2005،30)**

- ✓ أي مثقف نقصده ــ ونسعى إليه ــ وكيف ؟
- ✓ وما التنمية الثقافية ــ وفي أي اتجاه نريد ــ وكيف ؟
- ✓ وما التنوير ــ وما ضرورته كهدف قومي ننشده؟

تنطلق هذه الأسئلة الثلاثة من إحساس عميق بالأزمة الثقافية التي نعنيها، والتي تتشابك أمامنا عواملها الداخلية والعالمية ، ولا يمكن أن نتجاهلها . بل ينبغي أن نفهم خطورتها و التعامل معها بفكر جديد في ضوء معطيات العصر الذي نعيشه ونحن على أبواب القرن الحادي والعشرين .

وثمة علاقة متصورة بين الأطراف الثلاثة : المثقف والتنمية الثقافية والتنوير، علاقة نفهمها ونتصورها من خلال نظرة شمولية لحركة التطور في مسيرة شعوب العالم الثالث نحو التنمية والتقدم ، وهدفنا في دراستنا الحالية هو محاولة الاجتهاد في صياغة مفهوم شمولي تنويري للمثقف وموجهات عمل تنير الطريق أمام كل ما ننشده من جهود مخلصة في مواجهة أي مشكل يعوق المثقف .

تحديد مفاهيم المثقف و الثقافة و التنمية: إن المفاهيم الثلاثة المثقف والتنمية والثقافة هي مفاهيم عرفت تعريفات متعددة ونسب إليها معاني كثيرة ، وهناك الآن ضرورة حيوية للاتفاق على تحديد مفهوم واضح ومحدد منذ البداية لكل منها .

مفهوم المثقف : نستعمل كلمة " ثقافة" ونقول هذا شخص مثقف ...الخ فما الذي نقصده بالمثقف ؟

المثقف هو الإنسان الذي يكتسب نصيبا من العلوم والمعارف ،وغيرها من المعارف الإنسانية وتؤثر في سلوكه تأثيرا إيجابيا .

إن الإنسان بحاجة إلى فهم الحياة الاجتماعية والسي ومعرفة التاريخ وأحكام العقيدة الشريفة والقانون والأعراف ....الخ لكي يستطيع أن يتعامل مع المجتمع تعاملا سليما ويرسم خطة حياته، ومواقفه من الأمور والحوادث والناس الآخرين بوضوح ونجاح فمثلا ــ نحن بحاجة إلى المعرفة لكي نحدد موقفنا من الوضع السلبي القائم في بلادنا أو النظام الاقتصادي الذي تسير عليه الدولة ،أو مسألة دور المرأة في الحياة الاجتماعية أو مسألة حجاب المرأة ،أو مسألة الحريات وحقوق الإنسان....الخ.

إن فهم هذه المسائل وأمثالها وتحديد موقفنا منها يحتاج إلى وعي ومعرفة و المثقف هو الذي يملك تحصيلا علميا ليمكنه من فهم الأشياء ووعيها ، وتحديد الموقف السليم منها مباشرة أو عن طريق متابعة هذا الموضوع أو ذاك أو دراسته وفهمه إذا واجهه .

فالمثقف هو إنسان حضاري ، يعرف معنى الإنسانية ويحترمها ، متوازن الشخصية يتعامل مع الأشياء بعقل علمي وموضوعية ، هو من تؤثر المعرفة والثقافة في سلوكه وشخصيته ، فتظهر ثقافته في كلامه وحديثه عندما يتحدث مع الآخرين و تظهر في سلوكه عندما يتعامل معهم أو يعيش في أوساطهم ، مستقيم السلوك ، يختار أفعاله وسلوكه وعباراته التي ينطق بها على الناس والفهم والوعي السليم .

ـ **فالمثقف** إذن :

- هو الذي تكون الثقافة شخصية محترمة ومتوازنة تتسم بحسن الخلق والأدب
- هو الذي تعلم أصول الدين والتعامل الاجتماعي الناجح مع أسرته .
- هو الذي يحترم آراء الآخرين وليتعامل معهم بإكرام .

مفهوم الثقافة : يعرف البعض مفهوم الثقافة بأنها مجموعة العوامل المشتركة بين أفراد المجتمع والتي تتمثل في الاتجاهات والقيم والعادات والتقاليد والمعتقدات، وطرق السلوك التي يتميز بها مجتمع معين عن غيره من المجتمعات الأخرى **.(موسوعة علم النفس والتربية،2001 ، 184)**

و الثقافة تشمل كافة النواحي السلوك الإنساني التي لا تعتبر أفعالا منعكسة فطرية أو استعدادات ورائية ،وهذا ما يؤكده لنا هوبل (Hoebel)بحيث يعتبر عامل السلوك من بين الأركان الهامة في تعريف الحضارة ، وضرورة الابتعاد على كل ما هو فطري أو غريزي **(سعيد إسماعيل علي، 1999 ،36)** ،فمفهوم الثقافة هي كل ما صنعته يد الإنسان وعقله من أشياء ومن مظاهر في البيئة الاجتماعية ،أي كل ما أخترعه الإنسان أو ما اكتشفه وكان له دور في العملية الاجتماعية لهذا فإن الثقافة هي نظام حياة الفكر ونبضه **.(فايز مراد دندش، 2004، 49)**

ولعل تعريف تايلور (Tylor) برغم قدمه هو أفضل ما قدم إذ يعرف الثقافة بأنها حصيلة الكل المركب من المعرفة والمعتقدات والفنون و الأخلاقيات والقانون والعادات ، وجميع القدرات التي اكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع**(إبراهيم عثمان، 1999 ،156).**

نجد هنا أن الثقافة يختلط تعريفها أو مفهومها بمفهوم الحضارة المدنية ،والثقافة من ثقف بمعنى حدق وفطن ومن (cultura) اللاتينية بمعنى الفلاحة والتهذيب **.(عبد المنعم الحنفي،1992 ،146)**

وقال السمين الحلبي " الثقف :هو الحذق في إدراك الشيء وفعله " وثقفت الرمح قومته ،فهو مثقف و الثقاف ما يثقف به . وتدل كلمة ثقافة في اللغة العربية المعاصرة على المعرفة والتعليم ، فنقول هذا رجل مثقف أو نقول : إننا نعمل على نشر الثقافة :. الخ . و في ضوء المفاهيم السابقة للثقافة يمكن حصرها في الآتي :

- ليست عناصر الثقافة موروثة ولا فطرية .
- تميل إلى البقاء والاستمرار .
- تختلف من عصر إلى عصر في المجتمع الواحد من حيث النظام .
- الثقافة كل مترابط ومتكامل ومتناسق .
- الثقافة عامة " وحدة المشاعر الأفكار خاصة السمات " **(حسين عبد الحميد أحمد رشوان، 2005، 147-150)**

فالثقافة بمعناها الواسع الشامل هي تلك التي تمكن الناس من تنظيم حياتهم ، وتثبيت قدمهم في السعي نحو السعادة والرقي، فلنعمل لتكون ثقافة واسعة متكيفة مع العالم المعاصر عالم العلم والتكنولوجيا ، لكي ندفع بالبلاد إلى مسايرة العالم المتقدم المنتج والذي نريد أن نحتل فيه مكاننا الطبيعي وأن نكون خير خلف لخير سلف .

أنواع ومكونات الثقافة : يفرق العلماء اليوم بين ثلاث أنواع من الثقافة:الثقافة نفسهاculture الخاصة بالشعب ،ثم ما يتفرع منها من ثقافات محلية ، ربما كانت هي الأساس الذي تقوم عليه حياة الشعب نفسها ، و هذا هو ما يسمى بالثقافة الفرعية أو التحتية sub-culture ثم الثقافة العالمية أو العامة universal culture التي تتكون الآن بفضل ازدياد وسائل الاتصال بين الجماهير mass media من صحف و مجلات و إذاعات و مراكز تلفزة بالإضافة إلى التلفون و الانترنت، فكل نوع من هذه الثقافات الثلاث نابع من أصل: فالثقافة الخاصة بشعب ناشئة عن بيئته و ظروفه التاريخية و الثقافة الفرعية أو التحتية ناشئة من فروع هذا الشعب و البيئات المحلية المختلفة التي يعيش فيها sub nationality و الثقافة العالمية ناشئة عن موجة العالمية universality أو الحضارة العالمية التي نتجه نحوها اليوم .

ويمكن القول أن الثقافة تقوم على مكونين أساسيين هما المكون المادي و المكون اللامادي :

فالمكون المادي هو مجموع العناصر التي يمكن لنا قياسها و اختبارها، و ويعرفها علماء الإنسان بأنها مجموع ما أنتجته الإنسانية و ما قام به على مسرح الحياة من أعمال مادية مثل العمران و الفنون والتجارب.

أما **المكون اللامادي:** هو مجموع القيم التي لا يمكن قياسها و اختبارها ، وهي كل ألأشياء المرتبطة بالأخلاقيات والسلوكات و العادات و التقاليد التي تنشأ من مميزات المجتمع و عناصره ومعتقداته ، والتي تتشكل من العناصر الاجتماعية (وهي القيم و العادات) والعناصر الفكرية (وتمثل الأفكار و الفن و العواطف والعلم و اللغة) أما العناصر العقائدية فتشمل (الدين و القيم المتصلة به و المنبثقة عنه).

فلكل مجتمع تتشكل لديه بفعل التعايش الاجتماعي والتفاعل الداخلي خصوصيات تميزهم عن ثقافات المجتمعات الأخرى والتي يمكن تقسيمها إلى:

أ _ الخصوصية المهنية وهي المتصلة بالمهنة بحيث يستحيل وفق السنن الكونية أن يتوحد جميع الخلق في مهنة واحدة فسبحانه و تعالى يقول: "و جعلنا بعضكم لبعض سخريا".

ب _ الخصوصية العقائدية: و هي كافة السلوكات المرتبطة بالعقيدة أو النموذج المتبع لدى فئة معينة أو جماعة المتصلة برباط عقدي أو مذهبي أو ديني واد أو نلاحظها على شكل طقوس وأفعال، و آراء ، التي يتبادلها أبناء ه الفئة أو العقيدة ، و يشهرون انتمائهم لها ووجوب إتباعها.

ج _ الخصوصية الاجتماعية: وهي مجموع السلوكات التي تتميز بها طبقة أو فئة اجتماعية عن غيرها. وتبرز جلية في طريقة التعامل مع بعضهم البعض ،و في حيز و نوع التقاليد المتبعة في العلاقات وضوابطها ، و مدى اتساعها أو اقتصارها على جماعة ما .

د _ الخصوصية للأقليات :تعمل الأقليات التي تتواجد في وسط اجتماعي متجانس في الهوية و الجذور و الأصول على ممارسة أسلوب مميز في شتى نواحي الحياة الاجتماعية بما يحفظ لها بقائها في ممارسة إرثها الثقافي و نقله للأجيال اللاحقة.

هـ البدائل: وهي كل الأشياء التي يتبناها مجموعة من الناس في المجتمع ما ولكن لا يحدث حولها اتفاق و التفاف من طرف كافة شرائح المجتمع مما يجعل الفئة الصغيرة المتمسكة بثقافتها الوافدة و الغير مقبولة من طرف الأغلبية تعيش في عزلة وتختلف نوعية الرفض من مجتمع للآخر لهده البدائل باختلاف درجات الوعي ومدى إدراك للمخاطر الناتجة عن هده البدائل و تأثيرها على ثقافة المجتمع و تماسكها و ديمومتها.**(عبد الباري محمد داود،2005، 28)**

مفهوم التنمية : التنمية علمية شاملة اقتصادية اجتماعية ثقافية إنها حركة ونهضة مجتمعية وحضارية تتفاعل فيها مكونات المجتمع **.(شبل بدرات وآخرون، 2006، 121)**

فالتنمية لم تعد مع دخول القرن الواحد والعشرين مجرد تقدم صناعي أو اقتصادي ولم تعد مجرد إشباع كحاجات الناس ولم يعد ينظم إليها بمعزل عن التقييم الدولي للعمل في النظام العالمي الراهن، فلقد تجاوزت التنمية هذه المعاني واكتسبت بعدا إنسانيا وعالميا جديدا متفاعلا مع معطيات العالم المعاصر، والتي انتهت إلى أن التنمية هي تحرير الناس من كل أنواع الهيمنة والسيطرة التي تفوق إمكاناتهم وتقويتهم من خلال خلق بنى وسياقات اجتماعية تعزز وعيهم وقيمهم وسلوكياتهم الجديدة ،ذلك أن قرار الناس في تغيير أنفسهم في معظم بلدان العالم الثالث قرار معوق و محدد بفعل عوامل الهيمنة والسيطرة المحلية والعالمية وهناك خمسة معايير إنسانية للحكم على أي تنمية حقيقية وهي :

- ❖ وضع الإنسان كهدف أول للتنمية ، فالتنمية به ومن أجله .
- ❖ توفير فرص التعليم والتعلم والخبرة الإنسانية لكل فرد .
- ❖ توسع جوانب المشاركة في الحياة السياسية والاجتماعية .

- ❖ توفير فرص عمل حقيقية في المجتمع والقضاء على البطالة .
- ❖ تهيئة فرص تنمية كل الجوانب الإنسانية لكل فرد . **(شبل بدرات وآخرون، 164،2006-165)**

فإذا كنا قد توصلنا من قبل إلى أن الثقافة نموذج للإدراك أو بالأحرى نسق معرفي نفهم في إطاره ونفسر من خلاله خبرات حياتنا وسلوكياتنا ...واتفقنا على أن هذا النموذج أو النسق إنما يتكون من أشياء كثيرة منها العقائد والمعارف والقيم وحسب نوع هذه المكونات يتحدد هذا النموذج أو النسق الثقافي ،و يتحدد أيضا في إطار هيمنة علاقات دولية غير عادلة .

معنى ذلك أن تنمية الثقافة ليست عملية مرحلية تتعلق بالشخصية في علاقتها بواقعها الثقافي المحلي ،وإنما عملية تتم في إطار هيمنة العلاقات والتقسيمات الدولية. إلا أن هناك أربعة أهداف رئيسية لعقد التنمية الثقافية ينبغي إنجازها :

- ➢ مراعات البعد الثقافي في التنمية .
- ➢ تأكيد الذاتية الثقافية .
- ➢ زيادة المشاركة في الحياة الثقافية .
- ➢ النهوض بالتعاون الثقافي الدولي .

إن ما نود أن نؤكد عليه هنا هو تعميق المعنى الإنساني خلف كل هدف من هذه الأهداف ، حتى تتضح لنا طبيعة كل مشكل أو أزمة التي نعيشها في العالم الثالث، و التحديات التي نواجهها تحت ضغط نظام عالمي مهيمن .

مأزق التنمية الثقافية : إن تحديد طبيعة و أبعاد التنمية الثقافية مسألة هامة و ضرورية طالما بات واضحا أن التنمية الثقافية هي المدخل للتعامل مع المثقف ، و أن الغير مثقف هو أحد عقبات التنمية الثقافية ولا يمكن معالجته إلا من خلال التنمية الثقافية نفسها .

- ❖ **تخلف و تراجع الثقافة الوطنية:** إن الناس كما تفكر تعيش...وكما تؤمن تسعي...و كما تعتقد تتصرف، فالثقافة هي حياة الناس وحياة الناس هي واقعهم الثقافي ، ولذلك نري أن مدخل التنمية الثقافية مدخل أساسي و جوهري لمعالجة التخلف وينبغي أن يكون جزءا لا يتجزأ من أي مشروع وطني نسعى إليه في بلادنا.

لقد كان من نتيجة التقسيم الدولي للعمل ، أن أصبحت النشاطات الاقتصادية في الدول المتقدمة تتطلب العلم و التكنولوجيا،أما الدول النامية فأصبحت النشاطات الاقتصادية التي تدور حول التملك و الاستهلاك تتطلب معارف و علوم غير العلوم الطبيعية و التكنولوجيا ، و أصبحت الدول المتقدمة تحتكر العلوم الطبيعية و التكنولوجيا و لا تسمح بانتقالها إلى دول العالم الثالث إلا في حدود ضيقة و كيفيات معينة .

إن غياب العلوم و التكنولوجيا عن كونها عناصر فاعلة في مكونات الحياة الثقافية في العالم الثالث إنما ينتج عنه تحجيم النموذج المعرفي الإدراكي في هده البلاد ، وتعكس البيئة المعرفية للنظم التعليمية في بلدان العالم الثالث هذا الواقع الثقافي المرير أو بالأحرى غياب العلم و التكنولوجيا عن واقع بلدان العالم الثالث الثقافي، حيث يوجد ما يقرب 80% من طلاب العالم الثالث يدرسون العلوم الشرعية و الإنسانية و الاقتصادية و 20% من هؤلاء الطلاب فقط هم الذين يدرسون العلوم الطبيعية و التكنولوجيا، و من تم تحجيم عملية التنمية الثقافية و ترك الثقافة الوطنية فريسة حركات الردة و التخلف و فريسة لسلطة التراث و التقاليد ، وعلى صخرة الثقافة المتخلفة تنهار كل جهود التنمية. **(محمود مصطفي قمبر،1985، 217)**

- ❖ **هيمنة الثقافة الكونية** : لقد انتهت بنا التغيرات العالمية إلى مواجهة ثقافة غربية رأسمالية مهيمنة وليس هناك شك في أن هذه الثقافة الغربية ، هي النمط الذي تحول أو يتحول بالفعل إلى نمط حضاري كوني ومن قدرنا أن يأتي تطلعنا إلى

تنمية ثقافية في زمن تتسع فيه دائرة هذه الحضارة الكونية ، زمن تعم فيه كل أشكال هذه الحضارة مختلف بقاع الكرة الأرضية .

لقد اجتاحت تصورات الحضارة الغربية العالم أجمع مع الشركات الاقتصادية العملاقة ومع الأقمار الصناعية ، ومع شبكات وأجهزة الإعلام الدولية ومع دور النشر العالمية و المؤسسات الثقافية الكبرى ، وهناك سير جارف من الإنتاج الثقافي صاد ر عن هذه الآليات أخذ يهيمن ويوجه مسار حركة التطور في مجتمعاتنا ومجتمعات العالم الثالث بصفة عامة .

إننا في مأزق ... مأزق يعيشه العالم الثالث كله حقيقة تعجز عن وصفه أو التعبير عنه مفردات الفكر القديم الذي صور أزمة تخلفنا، على أنها صراع بين الأصالة والمعاصرة أو بين الدينية والدنيوية ، حقيقة المسألة أكبر من هذه المفردات ربما كانت هذه المفردات مفيدة في الستينات ، أي في عقود تنموية سابقة إلا أنها أزمة تهددنا بالهوية والحضارة معا . ويزداد فهمنا عمقا للأزمة التي نعيشها حينما نتأمل فكرة دوركايم التي تقول انه عندما يتقابل مجتمعان أحدهما أكثر تقدما من الآخر، فإنه من المتوقع أن تحدث حالة أو نوع من التفكك التنظيمي والثقافي للمجتمع **.(السيد ياسين، 1991، 10-11)**

التنوير هو الحل : لابد لنا أن نضع كل شيء موضع تساؤل ونقاش وحوار ننظر إلى دوافعنا ونناقشها دون خوف أو رهبة،ننظر إلى التراث وندرسه بعين فاحصة ناقدة واعية، وننظر إلى الحضارة المعاصرة بنفس العين الفاحصة ، فهيمنة التراث وسيطرة الماضي علينا لا تقل خطرا من هيمنة النظام العالمي الراهن ،كلاهما قوى قاهرة محطمة لإبداعنا وأصالتنا .

إن التنوير هو وضع الوافد والمورث معا تحت شروط التفكير العقلاني ، إذ هو دراسة عقلانية لأحلامنا المنطلقة نحو المستقبل وهو لكل ذلك تنمية لوعي الإنسان وأخلاقياته وإطلاق لطموحاته وقواه نحو نهضة منشودة .

ما التنوير وما ضرورته ؟ التنوير هو استلهام لروح التقدم دون نقل نماذج مسبوقة ، فالنمذجة والخطط المحكمة أشياء ترتبط بالتقنين المركزية والشمولية وهي جميعها آفات ثقافية ، وقد أثبتت عقود التنمية السابقة خطأ أفكار النمذجة المقننة والمركزية والشمولية في التنمية .

إن ما يجب التوصل إليه هو خطوط وموجهات عمل مستقبلية تكتمل دوائرها خلال التفاعل الواعي المستنير وبمشاركة فاعلة من الناس،

إذن التنوير هو خلق طاقات الإبداع والعمل وتعبئة الجهود اتجاه خطوط وموجهات عمل مستقبلية في سبيل تحقيق الحرية للفرد والمثقف بصفة خاصة ، فالتنوير يهدف إلى وضع المثقف في بؤرة التغيير وجعله مقياس كل عمل تنموي ، فالمثقف هو صانع التقنية ومن أجله يتم كل تغيير .

فالتنمية الثقافية هي حركة ولست نموذجا مغلقا معد مسبقا بل إنها مبادرات إبداعية تتحقق من خلال آليات ووسائل متعددة تنتظم جميعها في مسعى التنوير .

وفي معترك نضال كل هذه الأجهزة من أجل التنوير ، ومشاركة الناس مشاركة فاعلة واعية، يمكن أن تنموا ثقافتنا الوطنية، ففي خضم التفاعل وجهود التنوير تأخذ الأشكال والقيم الثقافية القديمة معاني حضارية جديدة .

إذن التنوير هو تفاعل مستنير لا يتحقق إلا حينما يصبح التفكير العلمي هو أداتنا في البحث عن الحقيقة ، ووسيلتنا في التحاور للوصول إلى الفهم المشترك ،وهدف التنوير تنمية هذا الفهم على أساس البحث العلمي والوعي .

من شروط التنوير ألا يزعم أحد فينا أنه يمتلك الحقيقة سواء تحت ذوي المزاعم المذهبية الدينية أو العلمانية...الخ ، فبالتسامح والتفكير العقلاني والعمل والإرادة يمكن أن نسهم في بناء نهضة وحضارة العصر .

ما أهمية التنوير للمثقف : باعتبار التحليلات السابقة بمفاهيم التنمية والثقافة والتنوير والمثقف يمكن لنا القول بأن جهود المثقف يجب أن ترتبط بحركة التنوير . والسؤال مطروح على أي نحو إذن ينبغي أن تكون جهود المثقف المرتبط بالتنوير ؟

إن المثقف في إطار التنوير إنما ينبغي أن يكون متفاعل بصفة عقلانية ويهدف إلى تحرير قطاع كبير من الناس من أغلال الجهل وثقافة الصمت استنهاضا لقواهم وتعبئتهم في سبيل تحقيق تنمية ثقافية وترقية ونهضة المجتمع .

والمثقف بهذا المعنى إنما يقع في القلب من التنوير كما يقع التنوير في القلب من التنمية الثقافية ، وكما تقع هذه الأخيرة في القلب من عملية التنمية و الإنسان قلبا من كل فكر و تصور الإنسان مقياس كل شيء .

فيجب أن يدرك المثقف بأن ثقافة الأمة العامة تتجه إلى ابتلاع الثقافات الفرعية أو التحتية و الثقافة العالمية تتجه إلى القضاء على الثقافات المحلية ، كذلك يجب على المثقف الواعي أن يعلم أن ألاتجاه العام اليوم ينحو إلى ضرورة المحافظة علي الثقافات المحلية ، وتجتهد الشعوب الآن في إحياء ما جمد وجف من تراث الثقافة الماضية الخاصة بها و المحافظة على الباقي من عناصر هذه الثقافة المحلية التقليدية لأن في دلك محافظة على كيان الشعب نفسه. في مقابل هذا نلاحظ ان الثقافة العالمية تغلبت على غيرها مع الزمن ،فكلما تحضر الشعب ، فقد جزءا من تراثه الشعبي المحلي و فقد نتيجة لذلك جزءا من شخصيته.

وإذا كنا نحن اليوم نشكو من طغيان الثقافة الغربية ومحاولتها طمس معالم حياتنا الشخصية ونحاول انقاد ثقافتنا بما تضمنه من عادات وتقاليد ومميزات للقيم الأخلاقية و العملية ، فانه حتى الأوربيين يقفون نفس الموقف من الثقافة المهيمنة الأمريكية التي تطغى عليهم شيئا فشيئا فتغير من عاداتهم و تقاليدهم ،و تؤثر تأثيرا خطيرا في شخصياتهم فأسلوب الحياة الأمريكي يمد رواقه شيئا فشيئا و لأخطر من ذلك طغيان الفن لأمريكي المصنع في صورة أفلام تعرضها دور السينما و روايات التلفاز التي تفرض على الثقافة العالمية طابع رعاة البقر .

فالكثير جدا ما نعانيه اليوم يرجع إلى أننا تركنا الثقافة الغربية تغزو ثقافتنا حاملة معها قيما جديدة تحاول أن تحل محل قيمنا فكانت النتيجة أن أختل ميزان القيم عندنا، و تعرضنا لهزات اجتماعية عنيفة لا تحمد عقباها ، ليس لأن ثقافتنا أفضل من هذه الثقافة العالمية ولكن لأن ثقافتنا هي نحن ، و قيمنا الاجتماعية و الأخلاقية هي من صنع مجتمعنا و تاريخنا ، فهي أوفق ما تكون لنا، و نحن لا نخشى هنا من الانحلال أو التهاوي ،لأن جدران ثقافتنا متينة وجذورها ضاربة في الأرض إلى عمق بعيد و لكن هدا الغزو قد يشوب نقاء ثقافتنا ، و يزعزع إيمان الكثيرين ممن لا يملكون وعيا كافيا ، و إذا كانت أروبا تخشى على ثقافتها من الثقافة الأمريكية ، فنحن أولى بهذا الخوف و أولى بالاهتمام بثقافتنا و شخصيتنا و قيمنا وإن أخطر الأمور على ثقافتنا الأصيلة هي أن يتولى شؤون و أمور الثقافة إلى عناصر غير متمكنة من ثقافتنا و لا فاهمة لها أو مقدرة مسؤوليتها

فينبغي على المثقف أن يتحلي بالإبداع الثقافي وان يحرص على المحافظة على ثقافتنا الأصيلة أي أسلوب حياتنا الخاص بنا، فهو أسلوب حضاري منظم له قيمة و قواعده التي نبعت في بيئتنا و نمت مع أجيالنا لأنها أوفق ما تكون لطبعنا، وعلى المثقف مسؤولية كبرى للمحافظة على الموروث الثقافي لان ثقافتنا هي نحن فكيف نفرط في شخصيتنا فلا بد كذلك في نفس الوقت من مثقفينا من تطوير ثقافتهم أي اقتباس ما يقومها و يجعلها دائما متماشية مع عصرها و صورته و مطالبه، ولكن في الغالب أن الثقافة تطور نفسها ما دام المجتمع قويا و متماسكا وواعيا لنفسه ، فواجب المثقف هنا يقتصر على حماية هذا النمو من العناصر التي لا تتفق مع طبائعنا و تقاليدنا و، وعقيدتنا و قيمنا الأخلاقية والنمط العام للمجتمع.**(شبل بدرات وآخرون،2006، 128-133)**

دور المثقف اتجاه المجتمع : تعد أولويات المثقف في القيام بدوره الريادي والقيادي تجاه المجتمع فيما يلي :

- تبصير الأمَّة بالحقوق والواجبات ، وتسليحها بالعلم والمعرفة ، ونشر الثقافة الإسلاميَّة بين المسلمين ، والدعوة إليها ، وتوعيتهم بما يجهلونه منها ؛ فإنَّ أمَّة تعيش على الاهتراء الثقافي ، والنسيان أو التناسي لعلمها وقيمها فضلاً عن التنكر لذلك ، مصيرها محتوم بالفشل وتكون بذلك قد حجزت لنفسها مقعداً بين الأمم المتخلفة وابتعدت عمّا من شأنه أن يرقى بفكرها وثقافتها.
- أن يكون له وقع وأثر فعَّال في إدارة الأزمة التي تمرَّ بها الأمَّة الإسلاميَّة ، ومن أروع ما قاله "جيري سيكيتش" في كتابه :(كافة المخاطر) عن تخطيط إدارة الأزمات :"لا تختبر أي إدارة اختباراً جيداً إلا في مواقف الأزمات". فالرجل المثقف يستشعر وجوده في مجتمع الأزمة ، ويحاول قدر المستطاع ، أن يبذل قصارى جهده لبث الروح الفعَّالة ، والمثقف لا يكل ولا يمل في محاولة بذر روح الأمل والعمل في قلوب الأمَّة ، ورفع المعنويات للجماهير المسلمة التي أصيب بعضها بروح اليأس والقنوط
- الوقوف بجانب الحق ، ومقاومة الظلم ، ومحاربة الباطل ، وإذا كان المفكر الأمريكي نعوم تشومسكي يرى بأن المثقف هو من يحمل الحقيقة في وجه القوَّة ، فإنَّ دين الإسلام أتى بمفهوم عجيب لنصرة الظالم والمظلوم ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما" فقال رجل: أنصره إذا كان مظلوما أفرأيت إذا كان ظالما كيف أنصره؟ قال "تحجزه أو تمنعه من الظلم فإنّ ذلك نصره" أخرجه البخاري . فالمثقف له دوره الفعَّال في نصرة الحق ، والمجاهرة بقوله ، ولو على حساب نفسه ، ومن العجب أن يكون أصحاب الباطل جريئين في قول باطلهم ، وأهل الحق ضعفاء بالجهر بحقِّهم ، فعلى المثقف أن يحترم ذاته وعلمه ولا يسمح بأن يكون أداة مؤجرة مهما كان الثمن ، وضرورة أكيدة للمثقف بأن يضحي لنشر أفكاره بالغالي والنفيس وليس على الترزق والأكل والشرب بأفكاره ، أو أن تكون أفكاره مواداً يتاجر بها فحسب . وإذا أصبح المفكر بوقا يستوي الفكر عنده والحذاء إنَّ المثقف هو قلب الأمَّة النابض ، وهو الذي يشعر بهموم الأمة ، ولا بدَّ أن يكون له موقف أخلاقي نابع من دينه تجاه ما يحدث فيكسب رضا الله ورضا الناس ويمنح التخليد في التاريخ ، وتعجبني كلمة قالها المفكر الإسلامي محمد الأحمري حين قال مرة في إحدى مجالسه : المعرفة والموقف يرفعان أقدار الرجال .
- المثقف يواجه عواطف الجماهير بروح عمليَّة حركيَّة وخصوصاً أنَّ العاطفة تكون سيدة الموقف في كثير من القضايا ، فهو في خطاباته لا يشحن العواطف ويحركها فحسب ، بل إنَّه يواجهها بعقلانيَّة وعمل مثمر بنَّاء ، وتسخير للطاقات في خدمة هذا المجتمع .
- وعليه فإنَّ من المهم أن يكون المثقف لديه وعي اجتماعي ويتبعه دور اجتماعي، يصلح به الواقع المعاش، ودنيا الناس ، ولا بأس ... فليكن مثقفاً ورجلاً شعبياً في الوقت نفسه .

فالمثقف هو من يكون جامعاً بين نفع نفسه ونفع الناس ، مع علم وفكر ومعرفة، والحقيقة أنَّ بعض الناس يظنُّ أنَّ المثقف يقتصر دوره على الكتابة أو الاستقاء الثقافي ، لذا صار كثير من المثقفين يعيشون في صومعة فكرية ، ودورهم في المجتمع ضامر ولا يظهر إلا من خلال كتاب أو مقالة أو رسالة فحسب ، ولا ريب أنَّ هذا خلل في المفهوم فالمثقف إن كان قصده المعرفة والثقافة فحسب ، فإنَّه لن يكون له دور إصلاحي ريادي في المجتمع وهو ما نسعى له

- من واجبات المثقف أن يجيب على تساؤلات الناس ، ويعالج مشكلاتهم ، فلا يكون كالكثير ممَّن يطرحون الإشكاليات التي يعجَّ بها العالم الإسلامي ، ولا يعطون لها حلاً ، أو يفكرون بطرق عملية تفيد السائل ، وتثري المجتمع ، وفي الحقيقة فإنَّ كثيراً من المثقفين يعيشون في أزمة وتكمن في إثارة الإشكاليات الثقافيَّة أحياناً في وجوه المخاطبين ، دون تبيين حلول لتلك الإشكاليات، لذا وصف كثير من المثقفين بأنَّهم يعيشون في واد والناس يعيشون في واد آخر. لكن ما نرجوه أن يكون المثقف كالطبيب الذي يعالج مشكلات الجسم ، وهو يعالج مشكلات الروح والمجتمع ، فضلاً

عن تعزيزه لذوات الناس والمجتمعات ، وزرع روح التكافل والتضامن الروحي والاجتماعي فيما بينهم فهو كما قيل : "شخص همه أن يحدد ويحلل ويعمل من خلال ذلك على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل ، نظام أكثر إنسانية و أكثر عقلانية ،ولا يعني ذلك أنَّ المثقف يجب عليه أن يجيب على كلِّ سؤال ، حتى يوصم بأنَّ لديه شهوة الكلام والجواب والخطاب ، وهو بهذا يظنُّ أنه يريد أن يحقق الموسوعية وهذه مشكلة قد يضر من خلالها أكثر ممَّا ينفع ، فبعضهم يريد أن يكون شيخاً وواعظاً ومفتياً ومحللاً سياسياً ومنظراً اجتماعياً وطبيباً نفسياً، إلاَّ أن المثقف الصادق يقول لما لا يعرفه لا أدري ويكثر من هذا القول ، ولا يتنافي هذا بأن يكون مثقفاً.

- ولابدَّ وأن يكون للمثقف دور في بناء الهيكل الثقافي للمجتمع وتزويده بكلِّ ما يرفع من كيانه وقدراته ، ومن ذلك :

ــ ممَّا يلزم على المثقف أن يكون له دور في الإصلاح الفكري والديني والاجتماعي وغيرها ، وأن يفرض رأيه بالإقناع لا بالإخضاع ، فهو ليس حاكم أو قاضي ، بل هو مبلغ وداعية وموصِّل للثقافة التي استقاها إلى شرائح المجتمع. مع أهميَّة أن يتسع صدره لمن يخالفه ، ويعامله بالحسنى ، ويعاشره بالمعروف، ويربي الناس على أهميَّة التخلُّق بأدب الخلاف ، والتعامل مع الناس في طروحاتهم الفكرية والثقافيَّة بأدب ، ويخبرهم بأنهم الرابح الكبير من وراء ذلك ، وصدق الله إذ يقول :(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً).

ــ من الأمور المهمة للمثقف المسلم أن يبني نظاماً ثقافياً لمن يريد أن يزداد من رصيده الثقافي ، ولو تنادى جمع من المثقفين لعقد جلسات بين أرباب الثقافة وأولو الفكر والمعرفة الذين يمتازون بالتنوع في التخصصات فيما بينهم مع الاتساع المعرفي ، والعمق المنهجي ، واختطوا منهجاً ثقافياً شاملاً عاماً يجمع بين القراءة والتدبر والتحليل والتأمل والدورات والتجارب والأشرطة والمحاضرات والندوات والأفلام الوثائقية والمناهج المتغايرة المختلفة ، وحاولوا أن يضعوا للمبتدئين وكذا للمتوسطين والمتقدمين ، منهجية ثقافية شاملة ، لكان أمراً متميزاً ، ويكون ذلك عبر خطة شمولية منهجية متكاملة في جميع العلوم والتخصصات .

ــ مخاطبة كل فئة بما يناسبها من الخطاب الثقافي ، فليخاطب كبير السن ، خلاف ما يخاطب صغيره، وحين يخاطب ويتحدث إلى النخب ، غير حديثه لرجل الشارع العامي ، وهكذا ... فليعط لكل مقام مقاله الذي يخصَّه ، ويتحدث بالحديث المناسب للرجل المناسب في المكان المناسب ، اقتداء بما قاله علي بن أبي طالب :(حدثوا الناس بما يعقلون أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله) وبقول عائشة :(ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلاَّ كان لبعضهم فتنة).

ــ تعميق الحس النقدي لدى أفراد المجتمع ، وتربية العقول على أن تكون موضوعيَّة في التلقي والاستماع ، ودراسة القضايا بروح المنهجية لا العواطف غير المؤصَّلة. لهذا عرَّف مجمع اللغة العربيَّة بأنَّ الثقافة :(كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق ، وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد والمجتمع) مجمع اللغة العربية ، المعجم الفلسفي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، القاهرة ، 1979 فمهم وحسن أن يكون لدى المثقف دور في تنمية ملكات النقد البنَّاء لدى المجتمعات المسلمة ، وكيف تتلقَّى الأخبار وتمحِّصُها قبل أن تشيعها وتذيعها.

ــ تشجيع روح الإبداع والابتكار في قلوب الشباب اليافع ، ومحاولة الإشراف على مراكز تعتني بهم ، وترفع من قدراتهم الإبداعيَّة ، والسعي لتمويلها وتشغيلها ، وحتماً فستنتج تلك المراكز كفاءات عالية نشيطة وذات همم وطموحات ، تفيد كل المجتمع.

ــ محاولة تقديم البديل الإسلامي المنضبط بقيم الإسلام وتعاليمه ، فالله تعالى يقول لمحمد ــ صلَّى الله عليه وسلم ــ :(ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً).

5 ــ المثقف و المستقبل:

ــ على المثقف أن ينتهز فرص قراءة المستقبل ، والرؤى القادمة ، ودراستها ، واستنباط وإبراز القضايا التي قد ينشأ منها إشكاليات في واقع الثقافة ومصادرها، وأن يسبق الباطل بخطوات قبل وقوعه ، بالإصلاح والنصح المبكر، لا

أن ينتظر وقوعه حتى يبدأ بالإصلاح والنصح وربما يتحول هذا الإصلاح بسبب بعد نظره إلى حق دون أدنى خسارة فيتحول الباطل إلى حق لحسن تدبير المثقف وعلمه وأسبقيته بمعرفة وقوع الخطر قبل قدومه . فيكون بهذا مقتدراً على توعية الشعوب بالمخاطر التي قد تواجهها ، وإعطائها اللقاحات الثقافية المضادة ، والأمصال الواقية من التأثر بقضايا تسبب فيما بعد مشاغبات ثقافية مؤثرة على الجو الثقافي والبيئة العامة . وذلك حتى لا تكون أفعال المثقفين أو قراءاتهم في الواقع أو دورهم في المجتمع ناشئ عن ردود أفعال فحسب ، بل لابد أن يكون للمثقفين دور في قراءة مستقبلية للفعل والتشخيص له قبل علاجه وصناعة الدور الذي يناسبه.

و تحصين الأمَّة وحمايتها من الغزو الفكري أو الثقافي الذي يراد لها من خلاله أن تتسلخ من عقيدتها وقيمها وثوابتها.

ــ تنقية الثقافات ممَّا يعتريها من خلل ، أو تشويش ، فنحن نعيش في زمن الانفجار المعرفي والذي جعل الكم الهائل من المعرفة والمعلومات متاحة لنا في كل وقت ، ومن المؤكَّد أنَّها تحوي الغث والسمين ، ووظيفة المثقف حيال ذلك أن ينقي المعلومات من مصدرها ، ويقدمها بصورة جيدة سلسة خالية من العيوب والنقائص ، وهذا ما نحتاجه في زمن الاتصال الفكري أن يكون هناك علاج للثقافة الوافدة إلينا وتمييز طيبها من خبيثها ، فثقافة الأرض لكلِّ الأرض ، ومن المهم الانفتاح عليها ، ولكن الدور الذي على كاهل المثقف هو التنقية والتصفية لجميع الثقافات وإدخال الحسن منها إلى دائرة المحيط الاجتماعي واستبعاد رديئها.

ــ التحذير ممَّا يسمَّى بـ :(عولمة الثقافة) وإشعارهم بخطورة هذه الفكرة ، وأنَّ فحواها ومحتواها طمس الخصوصيات الإسلاميَّة ، وإشغال الأمَّة المسلمة بما لدى الأمم الغربيَّة والأمريكيَّة على وجه الخصوص من ثقافات جديدة ، وإغراقهم في المستنقع الثقافي لما يسمَّى بالقرية الكونية.

ــ من مهمَّات المثقف تعديل المفاهيم عند الناس ، ومنازعة المثقفين في بعض المصطلحات ، ومن ذلك كلمة (المثقف) فقد كانت تطلق في السابق على أتباع الفكر الماركسي الشيوعي ، والآن تطلق على أصحاب الفكر الليبرالي العلماني ، فكلمة المثقف هي أولى بالمثقف المسلم . **(htt p.//www.almoslim.net/rokn-elmy/)**

الخاتمة :

إذا كان المثقف هو هدف التنمية وعصبها فإن التنوير والتنمية الثقافية تصبحان ضرورة في القلب من عملية التنمية لأهميتها في إعداد هذا الإنسان وتنمية وعيه وقدراته ومدركاته وطاقاته وجعله أكثر قدرة على فهم واقعه وحل مشكلاته والمشاركة في تنميته و النهوض به.

المراجع:

عبد الباري محمد داود(2005). **الأصول الإسلامية للثقافة العربية** ، مصر: البيطاش سنتر للتوزيع و النشر.

موسوعة علم النفس والتربية (2001)بيروت :ج8 .

سعيد إسماعيل علي(1999). **التربية في حضارات الشرق القديم** ، القاهرة :عالم الكتب .

فايز مراد دندش(2004). **في أصول التربية**،مصر : ط1،دار الوفاء.

إبراهيم عثمان: **مقدمة في علم الاجتماع**،ط1،دار الشروق، الأردن، 1999،ص156.

عبد المنعم الحنفي (1992). **الموسوعة الفلسفية**، تونس: دارا لمعارف.

حسين عبد الحميد أحمد رشوان(2005). **التربية و المجتمع**، الاسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة .

شبل بدرات وآخرون(2006). **التنمية الثقافية والتنوير** ، الاسكندرية: دار المعرفة الجامعة .

محمود مصطفي قمبر (1985). **تعليم الكبار "مفاهيم-صيغ-تجارب عربية"** ،الدوحة: دار الثقافة للنشر و التوزيع.

السيد ياسين(1991). **الثورة التكنولوجية و بداية الصراع حول المجتمع العالمي "تحليل ثقافي"**، التقرير الإستراتيجي العربي ، القاهرة.

-htt p.//www.almoslim.net/rokn-elmy/.